معاوية ابن أبي سفيان

عباس محمود العقاد

الناشر
دار الآفاق العربية

العقاد،عباس محمود ابراهيم بن مصطفي العقاد
معاوية ابن ابى سفيان
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2017
129 ص ، 24 سم

1- القصص التاريخية .
2- القصص العربية .
3- معاوية بن ابى سفيان، بن صخر بن حرب بن اميه، 603 – 680.

أ. العنوان 813.0871

تدمك: 9 – 397 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 25750 / 2016
الطبعة الأولى
1438هـ / 2017 م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية

نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 00202- 22617339 تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@gmail.com

والعرض مناط[1] الحمد والذم في الإنسان..

وكذلك التاريخ بالقياس إلي الإنسانية في جملتها، لا يكون شيئا إن لم يكن تقديراً لما هو صادق أو كاذب، أو ما هو صواب أو خطأ، وما هو حميد أو ذميم، من الحوادث والناس.

وقد نذكر الحوادث توسعاً في التعبير، فإن الحوادث لا تعنينا لذاتها إن لم يكن معناها تقويماً وقياماً بأعمال، أو لم يكن معناها في صيغة أخري تعريفا بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه..

وكل شيء في الحياة الإنسانية هين إذا هان الخلل في موازين الإنسانية، وإنها لأهون من ذلك إذا جاوز الأمر الخلل إلي انعكاس الأحكام وانقلابها من النقيض إلي النقيض.

يهون كل شيء إذا هانت موازين الإنسانية، لأن موازين الإنسانية جماع ما عندها من الفكر والخلق والعقيدة والذوق والخيال.

ومن هوان الموازين الإنسانية أن يختل كل هذا، فلا يوثق بمحصول الإنسانية كافة في تاريخها القديم والحديث.

وأهون من ذلك ألا تختل وكفى.. بل تختل وتنعكس، فيوضع فيها الذم موضع الحمد، والكذب موضع الصدق، والخداع موضع الإخلاص والإيمان..

وقد هان عرض الإنسانية الذى يشتري فى الحياة المال أو الغرض في حياته، فماذا يقال في عرض الإنسانية الذي يشتري في الحياة وبعد الممات، ويزيف فيه الواقع للعيان ثم يلازمه الزيف بعد ذلك مدي الأجيال علي صفحات التاريخ!

ذلك أفدح مصاب تصاب به الإنسانية: إنه مصاب في عرضها، في صميم أفكارها وأخلاقها وعقائدها وأذواقها وأحلامها - في موازينها وحسب - وما من شيء يعتز به الإنسان لا يدخل في هذه الموازين.

وأوجب واجب علي الإنسان لضميره أن يحمي نفسه من شر هذا المصاب الفادح،

---

[1] مناط: الموضع الذي تعلق به الأشياء.

وألا يتيح لأحد أن يختلس التاريخ في حاضره ومستقبله، فليس البلاء هنا بلاء منفعة تفوت أو مضرة تحدث، ولكنه بلاء الزيغ [1] في البصر والبصيرة، وعلينا نحن أن نصحح البصر زيغ البصيرة، لأنه نقص وعيب، أو لأنه تشويه في عاجل أو آجل. وكذلك نصحح زيغ البصيرة، لأنه نقص وعيب، أو لأنه تشويه في سواء الخلقة، وإن لم يعجل منه الضرر، ولم تذهب به المنفعة.

***

إن تاريخ الإنسانية من أوائلها إلي حواضرها لا يملك للعاملين جزاء غير حسن التقدير، وصدق القياس لما عملوه.

وكثير على أحد أن يبتذل هذا الجزاء، لأنه استطاع أن يحشو بعض البطون أو بعض الجيوب، فيملك - بهذه الرشوة الرخيصة - خير ماتؤتيه الإنسانية أحداً من أبنائها في الحياة وبعد الممات.

على أن الموازين الإنسانية لاتزيفها الرشوة المقصودة دون غيرها، ولا يختل بها غرض المنتفعين المتواطئين علي تبديل الحقيقة، ذهابا مع الأجر العاجل والعطاء المعروف.

بل تصاب هذه الموازين من النهازين أو "الوصوليين" المطبوعين كما تصاب من النهازين المصنوعين أو المصطنعين.

فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة علي الفضيلة أو علي الحقيقة، وإن لم يكن هو صاحب المنفعة ولا حاضراً لها عند انتفاع المنتفع بها.

من الناس من يحب ذلك، لأنه يرجع إلي طبيعته فيشعر بحقارتها إذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة، والحقائق الصريحة.

ومنهم من يحب الناجحين بالمنافع، لأنه يتمني أن ينجح علي مثالهم، ولا ينكر النجاح إذا جاءه بوسيلة كوسيلتهم.

---

[1] الزيغ: زاغ البصر: كل، وزاغ الرجل: مال عن الاستقامة.

ومنهم من يبلغ بهذه الخصلة حد التعصب والغيرة العمياء، لأنه يكره أن يدان الناس، أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه، ولايقدر علي التماس المعذرة لها في نقيصتها، أو في طبيعتها التي لا فكاك منها.

وليس أبغض إلى الإنسان من احتقاره لنفسه.

وليس أحب إليه من اعتذاره لها عن حقارتها.

***

وإنك لو بحثت جهدك عن عصبية عمياء تغطى علي بصر الإنسان وتملك عليه هواه، لم تجد لها علة أقوى من هذه العلة التي ينقاد لها ولا يبتغي الشفاء منها.

إنه يتعصب في كل شعور يدفع به النقص، ويمهد به العذر، وينفي عنه الإضرار إلى الإقرار بسبق السابقين له وارتفاع المرتفعين عليه.

وإنه ليعترف بالجهل إذا استطاع أن يدعي لنفسه تعلة يسمو بها على أهل المعرفة..

وإنه ليعترف بالعجز اذا استطاع أن ينزل بالقادرين إلى «مستواه» بخديعة من خدائع النفوس.

وانه ليعترف بالرذيلة إذا استطاع أن يلوث الفضيلة التي يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة.

وإنه ليتشبث بهذه العلات كما يتشبث الغريق بأوهام النجاة، لأنه بغير هذه التعديلات غريق في شعور ثقيل علي جميع النفوس، وهو الشعور بالهوان..

لهذا يتعصب النهازون المطبوعون علي أصحاب المثل العليا، لأنهم بين اثنتين: إما أن يدينوا أنفسهم بالمثل العليا، ويعملوا في السر والعلانية عمل أصحابها، وذلك مطلب عسير يصطدمون بعقباته كل يوم وكل ساعة..

وإما أ, ينكروا تلك المثل العليا علي أصحابها، ويتعصبوا لمن ينجح بأساليبهم أو يتمنوا النجاح بأساليبه، وذلك مطلب لايكلفهم تغيير الطباع، وإن لم يبلغوه بفعالهم كما بلغه ذوو القدرة أمامهم من الناجحين الفعالين..

***

وقد عرفنا من هؤلاء أناساً في التاريخ ماعرفناهم في الحياة الحاضرة.

عرفناهم فعرفنا عجباً من العصبية العمياء التي تكيل بالكيلين وتزن بالميزانين في الحادث الواحد والحقبة الواحدة.

إذا وقفوا بين خصمين أحدهما من النفعيين، والآخر من المثاليين - رأيت العجب في المقياس الذي يلتمسون به المعاذير لهذا، وينكرونها علي الآخر في اللحظة الواحدة..

إذا استسلم أحدهما مع الهوي لمحاباة ولده أو ذوي قرباه لم يعذلوه أو لم يعنفوه في عذله، بل اتخذوا من ذلك شريعة يؤتم بها، وتجري الوتيرة[1] عليها..

وماذا في هذا الصنيع عندهم مما يستغرب؟ كان علي الرجل أن ينسي ابنه ليفضل عليه الغرباء عنه؟ أليس هذا الصنيع صنيع كل إنسان في هذا المكان؟ ..

يعذرون هنا بل لا يلومون، ولا ينفرون ممن يلومونه إن جاملوا «الظواهر» فلاموه.

أما خصمه المثالي فمعدود عليه أن يحابي نفسه فضلاً عن محاباة ولده، ومعدود عليه أن يهبط من السماوات العلا لحظة واحدة ليشبه سائر الناس في نقيصة من النقائص أو أمل من الآمال. ولا حاجة إلى إمعان في البحث للكشف عن خبيئة الطبيعة النهازة في هذه التفرقة بين الحكم علي النفعيين والحكم علي المثاليين.

إن الطبيعة النهازة لا تريد هنا أن تحكم وأن تنصف بين خصمين.

إنها تريد أن تعذر نفسها لتقول: إن ذلك المثالي ناقص، وإن هذا النفعي يجري علي العرف الشائع بين جميع الناس. ولهذا يتناول النهاز الميزان وهو يتعمد أن يزيد في ناحية من السيئات ويحط من الحسنات، ويتعمد في الناحية الأخري أن يقلب الكفة فيزيد علي الحسنات ويحط السيئات.

ويكفي أن ينسب إلي العظيم المثالي عمل من الأعمال التي لا يقدر عليها النهاز ولا يسعي إليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة[2] بينه وبين ذلك العظيم المثالي، ثم يشعر

---

[1] الوتيرة: الطريقة المطردة يدوم عليها الشيء.

[2] الجفوة والجفاء: البعد، وترك الصلة، والغلظ في العشرة، والخرق في المعاملة.

بنوع من القرابة والألفة بينه وبين خصمه، فيميل إلي سماع الأحدوثة الحسنة عن هذا ولا يميل إلي سماعها عن ذلك، ويضطره إلي ذلك وقوفه بين طريقين: أحدهما غريب يصغره في نظر نفسه، والآخر مألوف يطرقه كل يوم أو يحب أن يطرقه غير ملوم بينه وبين دخيلته..

***

نعم.. يكفي أن ينسب إلى العظيم المثالي عمل من الأْمال التي لا يقدر عليها النهاز ولا يسعي إليها، لتنفرج الهوة بينهما فلا يستريح النهاز إلي العظيم المثالي كما يستريح إلي النفعيين الناجحين.

وتقول: "عمل من الأعمال لا يقدر عليه ولا يسعي إليه"، لأن هناك أناسا لا يقدرون علي العمل المثالي ولكنهم يسعون إليه، أو يتمنونه أو يحبون أن يؤمنوا بسعيهم إليه وتمنيه وصبرهم علي مشقة هذا السعي وهذه الأمنية.

وليس هؤلاء بالنفعيين المطبوعين.

هؤلاء مثاليون تعوزهم القدرة ولا يعوزهم الأمل في بلوغها ولا الغبطة بوجودها، وميولهم إلي جانب العظماء المثاليين أقرب وأغلب من ميولهم الي جانب المنفعة الناجحة بالحيلة أو بكل وسيلة، والأمثلة من هؤلاء وهؤلاء كثيرة بين سواد الناس الذين لا يدخلون الي ساحة التاريخ إلا شهوداً أو مستمعين.

فلو كان محنة التاريخ كله من النهاز المأجور لما خفيت حقائقه هذا الخفاء، ولا طال العهد علي الزيف أو الغرض المموه بالأباطيل.

وإنما المحنة الشائعة من أولئك النهازين المتطوعين الذين يقبلون العملة الزائفة ويرفضون ما عداها، ويجاهدون من يكشف هذا الزيف ويقوِّمه بقيمته الصحيحة، ثم تكثر العملة الزائفة في الأيدي حتي ليوشك أن تطرد العملة الصحيحة وتحيطها بالريبة والحذر، ولا ينفع المحك الناقد في هذه الحالة، لأن المحك الناقد لم يسلم قبلها من التزييف..

***

وفي التاريخ الإسلامي مراحل كثيرة تصحح لنا موازين التاريخ التي يرتبط بها عرض الإنسانية، وربما كانت هذه المراحل أجدى على المؤرخ من غيرها في تواريخ الأمم، لأنها حاضرة الأخبار والروايات، حاضرة الأسباب والبواعث، ولا يخفي من شأنها غير النيات والمزاعم. وليس بالمؤرخ من تضلله النيات والمزاعم حين تشخص أمامه الأخبار والروايات ولاتتواري خلفها الأسباب والبواغث بحجاب كثيف..

وأسبق هذه المراحل وأضخمها مرحلة النزاع بين علي ومهعاوية بعد مقتل عثمان..

فقد اختلفت فيها الأحكام علي الرجال والمناقب والأعمال، ولم تنقطع عنا أخبارهم وحوادثهم التي اتفقت عليها جميع الأقوال..

وإذا لم يرجح من أخبار هذه الفترة إلا الخبر الراجح عن لعن "علىّ" علي المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ماعداه مما يتم به الترجيح بين كفتي الميزان.

فإن الذي يعلن لعن خصمه علي منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه في كل مكان وبكل لسان، ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة أن معاوية كان يغدق الأموال علي الأعوان ومن يرجي منهم العون لكن لعن خصمه علي المنابر كافيا للإنابة عما صنعه لكسب الثناء عليه وإسكات القادحين فيه، ولكن أخبار الأموال المبذولة لتغيير الحقائق في هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لا يمدحون ولا يقدحون. ولم يعلم أحد مبلغهما من الوفرة والجسامة، ولكنها معلومة بالتقدير وإن لم تعلم بالإحصاء وأرقعام الحساب، لأنها استفدت خزانة الدولة، وجرت الي مضاعفة المكوس[1] والضرائب ومخالفة العهود لأهل الذمة وحسبان الزكاة من حصة الخزانة التي يستولي عليها ولاة الأمور.

ويبقى عمل النهازين المطبوعين بعد عمل النهازين المأجورين، فإنهم قد تطوعوا في ذلك العصر، وفي العصور التالية، لترجيح كفة النجاح المنتفع علي كفة المثالية العالية، ولم يخف الأمر علي أبناء ذلك العصر كما نشرحه الآن بأساليب علم النفس في الزمن الأخير

---

[1] المكوس: جمع مكس، وهو دراهم تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق.

فإن الأقدميين لم تفتهم «النفس» بجوهرها وإن فاتتهم مصطلحات النفسانيين من أبناء القرن العشرين، وقد نفذوا إلى بواطنهم بالنظرة الثاقبة، لأنهم أصحاب نفوس تعلم ماتنطوي عليه النفوس.

***

جاء في تاريخ الخلفاء للسيوطي عن الإمام ان حنبل أنه سأل أباه عن عليَّ ومعالوية، فقال: "اعلم أن عليًّا كان كثير الأهعداء، ففتش له أعداؤه عيباً فلم يجدوا، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطره كياداً[1] منهم له".

وهذه دخيلة من دخائل النفس الصغيرة معهودة متكررة في كل جيل وفي كل خصومة، فكثير من الثناء لا يصدر عن حب للمثني عليه كما يصدر عن حقد علي غيره، وكثير من هذا الحقد تبعثه الفضائل ولا تبعثه العيوب.

إن تاريخ معاوية بن أبى سفيان لا يحتاج إلى مزيد من تفصيل، وإنما يحتاج تاريخه وتواريخ النابهين جميعاً إلى تصحيح

الموازين، وبيان المداخل التيتؤتى من قبلها أحكام الناس علي الحادث والرجال، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأساً علي عقب، ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر، ونظرة الناظر، وإدراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنة وحوادث سائر الأزمنة.

ونحن ننفهم تاريخ معاوية، ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناة الدول إذا صححنا الموازين، وعرفنا مايعرض لها من الانحراف عن قصد أو عن شعور غير مقصود.

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره إذا أخذنا بظواهر الأقوال، ولم ننقب وراءها عن بوطن الأهواء والبواعث الخفية، ولا بد في هذه المرحلة بذاتها: مرحلة الدولة الأموية الأولي علي التخصيص.

لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثاً بالغ الخطر في تاريخ الإسلام، وتاريخ العالم.

---

[1] مصدر كايده، أي: مكر به.

وماكان أحد ليطمع في بقاء عصر الخلافة علي سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين، لأن أطراد النسق من ولاة الأمر علي هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوي أمر تنوء به طاقة بني الانسان.

فماكان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع علي طول الزمن، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل إلى زمن بعيد.

ولكن الملك بعد الخلافة كان علي مفترق طريقين: كان في الوسع أن يسير علي مشاية الخلافة ملكاً باراً نقياً مصوناً من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك في عصوره الخالية.

وكان في الوسع أن يسير علي مشابه الملك في العصور الخالية بذخاً ومتاعاً وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين.

كان في الوسع أن يبتديء الملك في تاريخ العالم علي النهج الصديقي أو الفاررروقي وإن لم يبلغ هذا المدي من النزاهة والصلاح، وكان هذا النهج خليقاً أن يظل إماماً للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم نكسة الأخلاق والآداب قروناً وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب[1] المادية، وماشابهها من آداب تدور علي النفع العاجل وتقبل المعاذير منه في أخطر الأمور.

كان في الوسع هذا، وكان في الوسع ذاك.

ونشأة الدولة الأموية علي مفترق هذين الطريقين هي الحادث الجلل في صدر الإسلام، وهي الحادث الجلل الذي يقرر تبعتها في التاريخ الإسلامي بل في التاريخ العالمي كله.

ورأس الدولة الأموية، معاوية بن أبى سفيان، هو صاحب هذه التبعة التي يجب أن تتقرر بأمانتها العظمي في ميزان لا تلعب به المنافع المقصودة أو المنافع التي هي أخطر منها علي الحقيقة، وهي منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير، يشق عليها الصعود الي

---

[1] أوشاب: عيوب

المثل الأعلي ولو بالأمل وحسن المظنة، ويطيب لها أن تسترسل علي هينة[1] مع مألوفاتها في كل يوم.

***

والصفحات التالية تتناول النظر في سيرة معاوية من هذه الوجهة، فليست هي سرداً لتاريخه ولا سجلاً لأعماله ولا معرضاً لحوادث عصره، ولكنها تقدير له وإنصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الإنسانية كما يراها من لايجتهد في البعد عنها وإخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث لايريد أو لا يريد، وبعض المؤرخين بعد العصر الأموي إلى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون إلى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم علي مطاوعة أهوائهم، كأنهم صنائع الدولة في إبان سلطانها وبين عطاياها المغدقة، ونكاياتها المرهوبة، ورجالها الذين يتنعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة في المطالب والمعاذير.

ولولا أننا نأبي أن نضرب الأمثلة بالأسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم في هذا التاريخ كلاماً ينضج بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة، فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية في الجاهلية، ومنهم من يحسب من همة معاوية أنه تصدي للخلافة مع علي، ويحسب من المآخذ علي غيره أنهم تصدوا للخلافة مع يزيد، ومنهم من يشيد بفضل أبي سفيان علاي العرب، لأنه كان تاجراً يعرف الكتابة والحساب ويعلمها من يستخدمهم في تجارته، ومنهم من يلوم أهل المدينة لأنهم نكبوا في أرواحهم وأعراضهم علي أيدي المسلطين عليهم من جند يزيد، ولاتكاد تسمع منه لوماً لأولئك المسلطين، بل تكاد تسمعه يعذرهم ولا يدري مايصنعون غير ماصنعوه.

ولو أننا ذكرنا أسماء هؤلاء المؤرخين المعاصرين لكان تمام البيان عن منهجهم أن نشفعه[2] بأطراف من تراجمهم وألوان من مسالكهم في طلب المنفعة واللياذ بالقادرين عليها، وألوان من معاذيرهم التي يرتضونها لأنفسهم ويوجبون علي الناس أن يرتضوها

---

[1] هينة: بكسر الهاء: السكينة والوقار والرفق.

[2] نشفعه: شفع العدد صيره شفعًا، أي: زوجًا، وأتبعه بمثله.

لهم أو يلتمسوها لهم، وإن لم يعلنوها.

ولكننا ندع هذا التمثيل لأننا في غني عنه بما ثبت من الأمثلة المحفوظة عن زمانها، ونتخذ الشواهد من حوادثه وأقوال رجاله، ونتحري في ذلك كله أن نصون التاريخ - نصون ذمة الإنسانية - أن يملكها من يملك الجاه والسلطان في زمن من الأزمان.

***